

قرب رحيل الشهر الفضيل



شهر رمضان أقبل علينا وهو شهر إلهي. وقد دعانا إلهنا إلى ضيافته، أنفاسنا فيه تسبيح ونومنا فيه عبادة ودعاؤنا فيه مستجاب وعملنا فيه مقبول وها هو يقارب على الرحيل في أيامه الأخيرة، فلنطهر قلوبنا ولنصفّي عقولنا ولنقرأ كتاب ربنا حتى نكون دائماً الضيوف الذين يأكلون من كل هذه المائدة الروحية اللذيذة.. شهر رمضان هو الشهر الذي أراد إلهنا أن يكون منفثاً على السنة كلها تخطط فيه لسنّتك كيف تتقرب إلى ربك وكيف تؤكد إرادتك وكيف تنهي نفسك عن الفحشاء وعن المنكر وكيف تفرح الفرح الروحي الذي ينتظرك في نهايته وتأتي كلمة عليّ (ع) ليختصر لنا معنى العيد في حياتنا "إنّما هو عيد لمن قبل إله صيامه وشكر قيامه، وكل يوم لا يعصى إله فيه فهو عيد"، فكان عليّاً (ع) يقول لنا لماذا لا تجعلون أيامكم كلّها أعياداً، فطاعة إله هي العيد الذي لا بدّ أن تحتفل به، فلماذا لا تعيش هذا الفرح الروحي في كلّ حياتك وليس من الضروري أن يكون عيد فطر ولكن أن يكون عيد الطاعة إلى إله والقرب منه والمسير في طريقه.. إنّ الساحة جاهزة والرب يفيض علينا من رحمته وعلى كلّ منّا أن يعرف كيف يغترف من هذا النبع الصافي السلسيل، ويبقى النداء (وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهَ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة/ 105).

إذاً، (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لَيْلَ ذَيْنَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) فجزاء التقوى (فَأَسْتَجِبْ لَهُمْ رَبِّي أُنِيبُ لَا أُصِيبُ عَمَلًا مِمَّنْ مَنَعْتُمْ مِنْ ذِكْرِي أَوْ أُتُتِلَ) (آل عمران/ 195)، ستنالون الجزاء الأوفى من إله إذا سرتهم في خطّة التقوى التي تفرض عليكم أن تقفوا موقفاً أو تعملوا عملاً فيه رضاه، أو تبينوا علاقة يحبّها إله، أو رفضتم حالة أو علاقة يريدكم إله أن ترفضوها وتبتعدوا عنها، أو عملاً تتركونه، لأنّ إله يأمركم بتركه، وسيعطيكم إله حسنةً على ذلك. (لَيْلَ ذَيْنَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) (الزمر/ 10)، فإذا فعلتم ما يريده إله تعالى، فإنّ ذلك يشكّل الإحسان لأنفسكم وللحياة من حولكم، لأنكم إذا عشتُم الضوابط الشرعية التي نظم إله الحياة على أساسها، فإنّ هذه الحياة تعيش في توازن وخير وبركة. وهذه الفقرة من الآية (لَيْلَ ذَيْنَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) تلتقي بالآية الكريمة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (الزلزلة/ 7)، وتلتقي كذلك مع الآية المباركة (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى) (النجم/ 39-41)، مفهوم قرآني واحدٌ بعباراتٍ متعدّدة. وهذه التقوى تفرض على الإنسان إذا ما صدّه الناس عن طاعة إله، أن يبتعد إلى مكان آخر ليحفظ دينه (وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ) (الزمر/ 10)، إذا لم تستطع أن تعبد إله في مكان فانتقل إلى مكان تستطيع أن تعبد إله فيه، وإذا حاصرك الناس في موقع، فهناك ألف موقع تستطيع أن تطيع إله فيه، لذلك، لست معذوراً أن تبقى في مكان تُضطر فيه أن تعصى إله وتترك طاعته سبحانه، وإلا كنت مثل أولئك (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِي أَنْ تَقُولُوا هُمْ) (النساء/ 97)، ظلّموا أنفسهم

بِالْكَفْرِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْهِمُ الْأَقْوِيَاءُ (إِنَّ السَّادِّينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا* فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) (النساء / 97-99).

ومن الذين رفضوا الرضوخ للأقوياء الذين عملوا على تطويقهم ومحاصرتهم وإجبارهم على المعصية والكفر، أولئك الذين فروا بدينهم (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء / 100). إنَّ لم يضيِّق عليك كلُّ الساجات، فإذا استطعت أن تتحرَّر من الضغط الذي يفرض عليك معصية الله ويمنعك من طاعة الله، وتقدر على أن تنتقل من أرض، إلى أرض، فلا يجوز لك أن تقيم في مكان تُفرضُ عليك فيه المعصية، أو تهاجر إلى أرض يضعُفُ فيها دينُك (وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ). من هنا، علينا أن نعرف أنَّ التقوى تكلفنا شيئاً من مزاجنا ومآلنا وجهدنا ومآلنا، قد تُضطرُّنا التقوى أن نترك المال الحرام ونحن أوج الناس إليه، وقد تفرض علينا التقوى أن نرفض الجاه الحرام وهو بين أيدينا، والشهوة الحرام وأنفسنا تهوى إليها، أو نترك أرضاً ونحن بحاجة للعيش فيها.. هناك آلام في هذا الطريق يجب أن نتحمَّلها، لأنَّ الإصرار على حقِّ الإيمان يُلزمنا بذلك.

عاش هذا الشهر في حياتنا كأفضل ما يعيشه زمن مبارك في ما يمنحه من البركة لكل الناس الذين يعيشون فيه من خلال الفرص التي يوفرها لهم في طاعة الله والحصول على مغفرته ورضوانه، و من خلال الأجواء الروحية التي يثيرها في أجواء الناس الذين يتحركون فيه.

وعشنا معه في حمد وخير وسرور، وحصلنا على أفضل الأرباح على مستوى النتائج الدنيوية والآخروية على أساس ما حصلنا عليه من عمق في الروح، وسمو في الأخلاق، واستقامة في الخلق، وامتداد في الالتزام بأوامر الله ونواهيه، وصوم عن كل ما يفسد الروح ويسوء إلى طهارة الإنسان في نيته وأقواله وأفعاله.